٩٥٠٢

أعلام العرب

١٢

القلقشندي

في كتابه صبح الأعشى

عرض وتحليل

بقلم

الدكتور عبد اللطيف حمزه

وزارة الثقافة والإرشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

فى ذمة كل جيـــل من الناس أو فى عنقه أمانة عظيمة بالنسبة للأجيال التى سبقته . وهذه الأمانة هى أن يقوم هذا الجيل بنقل ما ورثه من تراث أدبى وعلمى عن تلك العصور . وذلك بأسلوب جديد وعرض جديد وفهم جديد للظروف المحيطة بالأمة . وبهذه الطريقة تصل هذه الأمة ماضيها بحاضرها وتجعل من جهود أسلافها فى شتى العصور سلسلة متصلة الحلقات يمكن أن تعطى صورة دقيقة من حضارتها التى تميزت بها عن سائر الحضارات .

والمعروف ان ثقافتنا العربية ثقافة قديمة عميقة الجذور ؛ وذلك فى كل اقليم من الأقاليم التى ازدهرت فيها تلك الثقافة . وهى من هذه الناحية خليقة بأن يعنى بها على هذا النحو ؛ بحيث نعتبر أنفسنا آثمين فى حق عروبتنا اذا نحن تركنا تراثنا العـــربى القديم مكتوبا بخطوط أصـــحابه وأعلامه ، معروضا بطريقتهم التى كانت ملائمة للعصر الذى عاشوا فيه . ومن هنا يدعونا داعى العروبة من آن لآن الى

أن نعمد الى هذا التراث ، فنقوم بنشره أولا عن طريق المطبعة . والمطبعة من الأدوات أو الأسباب التى من أجلها سميت العصور الحديثة بهذا الاسم . ثم لا يكفينا نشر هذا التراث القديم عن طريق المطبعة حتى نأخذ فى عرضه كذلك بطريقة حديثة تلائم أذواق الجيل الذى نحن منه . وللأجيال التى تأتى بعدنا أن تفعل فعلنا . وهكذا دواليك .

لعل ذلك ما دعا وزارة الثقافة الى أن تقدم للجيل الحاضر هذه الموسوعة المشهورة فى تاريخ الأدب العربى باسم :

صبح الأعشى فى صناعة الانشا

وقد عهدت الىّ بهذا العمل الجليل فرحبت به ترحيبا شديدا لهذا السبب الذى شرحته الآن ، ولأسباب أخرى كثيرة ؛ من أهمها عنايتى منذ سنوات بفن التحرير الصحفى حتى لقد أرخت فى كتب أخرى لهذا الفن الجديد لمدة تزيد عن قرن . وما زلت ماضيا فى عملى هذا الى اليوم .

ونحن نعرف ان الكتابة العربية انما تأثرت منذ نشأتها الى الآن بعاملين كبيرين هما : ديوان الانشاء فى العصر الوسيط ، وظهور الصحافة فى العصر الحديث . ومعنى ذلك اذن أن للكتابة العربية طورين كبيرين : أولهما — الطور الذى تأثرت فيه الكتابة بديوان الانشاء . وثانيهما — الطور الذى تأثرت فيه بظهور الصحافة .

وقد أرخ القلقشندى وغيره للأول وتؤرخ نحن وغيرنا للثانى .

على اننا نستدرك هنا فنقول اننا لا نتطاول الى بلوغ المنزلة التى بلغها القدماء فيما أرخوا لصناعة الانشاء : فهذا أبو العباس القلقشندى صاحب صبح الأعشى كتب فى موضوع (الكتابة الديوانية) أربع عشرة مجلدة لا تقل الواحدة منها عن أربعمائة صفحة ، وقد تصل الى ستمائة . على حين ان مجموع ما كتبناه نحن فى موضوع (المقالة الصحفية) الى الآن لم يبلغ بعد ألفى صفحة . وذلك بالرغم من أن لنا من الامكانيات مالم يكن للسابقين الأولين من العلماء والباحثين . وأجل هذه الامكانيات تلك الأداة الحديثة التى أشرنا اليها وهى المطبعة !!

* * *

كان من أيسر الفوائد التى عادت على القارىء العربى القديم من مثل هذا الكتاب الذى نحن بصدده الآن — وهو كتاب صبح الأعشى — ان حصل هذا القارىء على ما نسميه فى لغة العصر الحاضر (بالوعى العربى) — وهو الوعى الذى انتشر بسرعة البرق ، وعمل عمله فى العقل العربى ، والنفس العربية والذوق العربى فى وقت معا .

وقد رأينا أبا العباس القلقشندى يتتبع كل فن من فنون المكاتبات التى تصدر عن ديوان الانشاء فى كل بلد من بلاد الاسلام ؛ كالعراق والشام ومصر والحجاز . ثم لا يكتفى

بذلك حتى يصف ما كان من أمر هذه الفنون الكتابية كلها فى بلاد المغرب والأندلس .

حيا الله أسلافنا من العلماء . فقد كان الواحد منهم يستطيع بمفرده أن يقوم بتأليف موسوعة كبيرة تبلغ العشرات من المجلدات ، وليس الى جانبه مطبعة تسعف ولا أجهزة تعين على هذا العمل الضخم . على حين اننا فى الوقت الحاضر قلما نستطيع القيام بمثل هذا العمل الا عن طريق الجهود المشتركة والتعاون الجماعى على أوسع نطاق !!

* * *

والكتاب الذى نقدمه اليوم للقراء يعطينا فكرة صحيحة عن الثقافة التى كان لابد منها لكاتب الديوان ؛ وذلك فضلا عن الفنون الكتابية العديدة التى لابد له من أن يحذقها جيدا ، ويقف على أصول كل فن من فنونها على حدة . وسيخرج القارىء الحديث من كل ذلك برأى صحيح عن تقدير أسلافنا للثقافة من جهة ، ومدى اعتمادهم عليها فى ترقية المواطن العربى الذى هو عنوان الدولة الاسلامية فى جميع عصورها من جهة ثانية .

* * *

(والخلاصة) اننا نجد فى الكتاب الذى بين أيدينا الآن - خلا فنون الانشاء التى أشرنا اليها بيانا لأمور عدة : —

نجد فيه بيانا لحال اللغة العربية فى عصورها المختلفة ،

وانتشار هذه اللغة فى بلاد كثيرة ، منها فارس وما وراء النهر وبلاد الروم ومصر وبلاد افريقية والمغرب الأقصى والأندلس وبلاد الهند والصين وبعض بلاد أوربا نفسها .

نجد فيه بيانا للسبب الذى من أجله نجحت هذه اللغة فى أن تصبح فى وقت قصير لغة الأدب والعلم ، ولغة الحكم والسياسة ، فضلا عن كونها لغة الدين ولغة القرآن الكريم .

نجد فيه شرحا للنظم الادارية التى سارت عليها الدول الاسلامية فى كل بقعة من بقاع الأرض ظهر فيها الدين الاسلامى .

نجد فيه اهتماما خاصا (بوصف مصر) من جميع نواحيها ، وعناية بالنيل وزيادته ونقصه وخلجانه وزرعه . وبيانا بخطط الديار المصرية على نحو يذكّر بما فعله المقريزى فى خططه المعروفة .

هذا كله فضلا عن كون الكتاب الذى ألفه القلقشندى يعتبر معرضا جميلا لآثار الكتابة الديوانية منذ عرف المسلمون ديوان الانشاء الى زمان المؤلف كما سبق أن ذكرنا . ولو لم يكن لهذا الكتاب من حسنة الا هذه الأخيرة لكفاه شرفا وفخرا واستحقاقا للجهد الذى بذل فى نشره وتحقيقه عن طريق القسم الأدبى بدار الكتب المصرية فى سنة ١٩١٣ . ثم استحقاقا للجهد الذى نبذله نحن الآن فى عرضه وتحليله وتقديمه للقراء فى جيلنا هذا .

* * *

أريد أن أختم هـذا التقـديم بشـكر وزارة الثقافة بالجمهورية العربية المتحدة على أن عهدت الىّ بهذا الكتاب الذى أقدمه اليوم للقراء وأنا مغتبط به أشـد الاغتباط للأمرين اللذين شرحتهما قبل الآن .

أولهما — أننى أقدم للقراء رجلا من أعظم بناة الثقافة العربية فى العصور الوسطى ، عاش فى عصر المماليك ، وهو العصر الذى تبلورت فيه الشخصية المصرية واتخذت شكلا نهائيـا .

وثانيهما — أن كتاب (صبح الأعشى) عرض (للرسائل الديوانية) بصورها المختلفة فى عصورها المختلفة .

أجل — تعرض القلقشندى فى موسوعة صبح الأعشى لفنون شتى من التحرير الرسمى أو الديوانى :

كفن تحرير (الولايات) ، وتحرير (العهود والمبايعات) وتحرير (الأيمـان) جمع يمين ، وتحرير (كتب الأمان) ، وتحرير (عقود الصلح) ، وتحرير (كتب الهدنة) ، وتحرير (الوصايا الدينية) التى تلقى باسم الخليفة من أعلى المنابر العامة ، وتحرير (المسامحات) وتحرير (الاطلاقات) ، وتحرير (الاقطاعات) وهكذا الى ما يقرب من عشرين فنا !!

وتعرضنا نحن فى كتب أخـرى لفن تحرير (المقال) بأنواعه المختلفة ، وتحرير (العمود) بصوره المتعدّدة ، وتحرير (القصة الاخبارية) داخلية كانت أم خارجية ، وتحرير (التعليق) ، وتحرير (الطرائف) ، وتحرير (الحديث

الصحفى) ، وتحـرير (التحقيق الصحفى) ، وتحـرير (الماجريات الصحفية) ، ثم تحرير (الصورة) ، وتحرير (الاعلان) ، وتحرير (الراديو) وتحرير (التلفزيون) ، وتحرير (السينما) .

فهاتان اذن صـورتان متقابلتان للنثر العـربى قديما وحديثا . يلذ للباحث المتخصص أن يتأمل فيهما ، ويبدى اعجابه بالجيد منهما !!

والله نسأل أن تقبل الشبيبة العربية فى وقتنا هذا على مثل هذا الكتاب الذى نقدمه للقراء ، وأن يحببهم جميعا فى الثقافة العربية ، ويحقق لهم بها كل الفائدة المرجوة . انه سميع مجيب .

عبد اللطيف حمزة

مصر الجديدة فى أول ديسمبر ١٩٦٢ .